جسور حية

قصة بقلم الآنسة آنجال عبود

عزيزتي عاطفة .

سأخطب الى منير . وقد قبلت مقدما . وقريباً تقرئين النبأ فاسألك الا تتعجبي ولا تدهشي ولا ترثي لحالي . انني وحدي المسؤولة عن عملي هذا ، وانا اقوم به مفتوحة العينين . انا اعلم خطورة خطوتي هذه ومع ذلك فانا اقدم عليها مطمئنة مهما كانت النتائج وإلا ... فاتني القطار وبقيت في وحدتي على رصيف المحطة بين صف طويل من العوانس ... اتذكرين كم كنا نسخر من استاذة التاريخ ومن عنوسها ذلك ؟

أنا اخاف ان القى هذا المصير . ليست الوحدة هي التي اخشاها ، فانا اقدر ان احيا ، بنفسي ، سعيدة راضية البال ، ولكنني اخشى ان يسخر الناس مني كما سخرنا من استاذة التاريخ في الماضي ؛ اخاف نظرتهم المتسائلة عن سبب تخلفي عنهم . ولذا قبلت بمنير .

ماذا اقول عنه ؟ انه طيب القلب . انه وسيم نوعاً ! لا ... لن اصفه لك فانت تعرفينه وتعلمين ان الكثيرات يطمحن الى حمل اسمه الارستقراطي والتمتع برصيده المحترم في مختلف مصارف البلد واراحة رؤوسهن على كتفه الرياضية العريضة . ولكن ... انا ؟

نعم يا عزيزتي انا . انا ايضا اصبحت من هؤلاء الفتيات فقبلت به مقدما . ولم لا ؟ وبم تراني اختلف عنهن ؟ بالكبرياء وبعض المثالية ؟ بالاحلام ؟ ألست امرأة ، عفواً ، فتاة في عالم الرجل الذي نعيش فيه ؟ فكيف أشذ عنهن ؟ وماذا انتظر اكثر من هذا ؟

صحيح انه كان علي ان ابقى في بيتي بانتظار الرجل الذي خلقت له وخلق لي ... لقد جلست في بيتي . واتاني الرجال ، وما كان ابعدهم عن رجلي ، فرفضت ورفضت . ليس من حقي إلا الرفض . ولقد قيل اني من السعيدات ، فهنالك من لا يملكن حق قول لا . ولكني بدأت اسأم الرفض . لم تعد القضية مسلية كما كانت في البدء . لقد انتهت المهزلة وبدأ فصل المأساة في حياتي .

وهو ... رجلي ... الذي حلمت به ... الرجل الذي احببت من اعماقي ... لم يظهر في افق حياتي . ولم املك حق البحث عنه خارج محيط اهلي .

ثم لنفترض انه ظهر في الافق واقترب مني ، فهو سيكون لاهياً عني حتماً . لاهياً بتوطيد مركزه ، بتأمين مستقبله ، بفتاة غيري او باي متعة اخرى تستغرق كل انتباهه .... الم يحدث هذا لغيري من النساء ؟ وماذا فعلن ؟ هل طلبن منه مشاركته حياتهن ؟ اعرضن عليه الزواج ؟ هل ايقظن فيه الحب نحوهن ؟ طبعاً لا ... عيب ... بقين على صمتهن وقبلن اول رجل طيب القلب طلب الزواج منهن .

لا ... ليس لنا نحن النساء حق الاختيار . علينا بالـ«نعم» او بالـ«لا» نقولها لمن تنازل وطلب منا الحياة معه ... وقد تعبت من قول لا ... خفت ان ابقى بانتظار رجلي الذي ربما اتى الي وربما بقي بعيداً . خفت من الانتظار القلق غير الواثق من النهاية ليتني اتأكد من انه سيأتي ، من أنه سيدخل حياتي! ولكن ... من هو هذا الذي انتظره ؟ وهل يأتي ؟ وهل يراني ؟ ... لقد ملت الانتظار ونظرات من حولي كلها علامات استفهام لبقائي كما خلقت حتى الان ...

أتدرين ؟ كلما ذهبت الى حفل ما ، كلما حضرت اجتماعاً عاماً شعرت بالكره لنفسي ، احسست بالاحتقار لانوثتي ، لاني ادخل الحفل من غير ذراع رجل اليفة تقيني النظرات المتسائلة المشفقة . وفي هذه الحفلات ، وفي هذه الاجتماعات اقترب الرجل - اي رجل - مني وجلس الي فتفحصني من شعري المصفف حتى مانيكور اظافر قدمي ، لم يبق امامه إلا ان يقول لي : « قفي بربك قليلاً ، استديري حول نفسك ، ارفعي يدك اليمنى الى رأسك ، اسبلي جفنيك باغراء ، ابتسمي ، اعبسي .... هه ، آه ... لا بأس ... سافكر بالامر ... على كل سأرى ما سيكون ... » حتى هذا قام به وهو يطلب مراقصتي . وحدثني عن الطقس والرقص والسياسة احيانا ، وفرض علي الامتحان الفكري الذي يريده هو ، ثم ابتسم وهو يبتعد وكأنه يقول : « شكراً يا انسة . سأرى بضاعة الجيران قليلاً ... سأفكر بالامر . لدي متسع من الوقت ... سنرى ما سيكون . »

لا ... لا ... لقد تعبت من كل هذا ... لقد ...

حتى سائق السرفيس وخادم البقال الذي يجلب لنا الخضار ينظران الي نظرة تحسر وشفقة على شبابي الضائع ... نظرة حيرة من امر بقائي في بيت ابي حتى اليوم .

وانا ؟ انا ايضاً رأيت نظرتي في المرآة ترثي شبابي المهدور .

واتى منير ... لم احلم به كرجلي ، ولكن ... قلت لك من هو رجلي ؟ آه لو عرفته ! وهل يأتي ؟

ومن يدري أن الخليل ما كان ليستحسن هذا العيب لو سمعه . كشأنه مع بعض العيوب اذا قلّت ؟ وإن سألت كيف يُستحسن وهو عيب ؟ أحلتك على إسحاق القائل : قد يكون مثل هذا الحول واللثغ في الجارية يشتهى القليل منه فان كثر هجن وسمج ، والوضح في الخيل يشتهى ويستطرف خفيفة الغرّة والتحجيل ، فاذا فشا وكثر كان هجنة ووهنا .

غير أن ما سوف يلعنه الخليل طرحاً ، ويرذله مسخاً ، هو ذلك البيت المكسور الوارد في قصيدة (بين الصبر واليأس) :

يندفع الموج في تلاطمه ... ويتلاشى وهو أوشال

ومن له اذنان موسيقيتان أو معرفة بالعروض فليزن .

أمّا قوله :

وما طلب المكانة بالتمني ... فذلك مطلب ناء بعيد

من قصيدة « الى الجبل الأشم » فهو تشويه لقول شوقي :

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وبعد ما كنت لأترّب عليه فأتمادى . لو أنه قلّد فأجاد ، وغنى فأطرب ، نظير غيره من المقلّدين . أقول هذا ، لئلا يُظن بي التأثر الجامح بمذهب من الشعر ، وبمقياس خاص لا يحسب الفن في ما عداه . وإن كنت في الواقع لا أخلو من هذه الظنّة . إلاّ أني لست من الذين يتظاهرون بالعمى أمام الجمال في أي شكل بدا .

واخيراً ، أهذا « ماضٍ من العمر » ، ام هو ماضٍ من الشعر ؟ ...

هنري صعب الخوري

ها هي ذراع تدخلني العالم بثقة واطمئنان . ها هي درع تقيني النظرات، فلم لا اقبل ؟

وآمالي برجل يفهمني وافهمه ؟ واحلامي بمستقبل جميل ؟ أأتخلى عنها كلها ؟ هل انسى ما طلبت دوما ؟ هل اتجاهل ما كنت ابحث عنه في قرارة نفسي.

ولكن ... أهنالك شخص حقيقي يشبه هذا الذي حلمت به ؟ اتراني رسمت صورة خيالية لا وجود لها في الواقع ؟ ترى ، لو اتيحت لي فرصة البحث عنه اتراني اجده ؟ وعلى افتراض اني وجدته ، اتراه يعرفني ؟ هل يتوقف عندي ؟ ام تراني ، مثل غيري ، اقف مكتوفة اليدين وانا اراه يختار امرأة اخرى ، فله وحده حق الخيار ، وانا لا املك الا الانتظار وإلا القبول او الرفض بعد انتظار طويل ممل لا ادري نتائجه ؟

لندعه يأتي ، لنتركه يتوقف عندي قليلاً فما يحدث ؟ ألن احبه؟اني احبه سلفاً ، احبه قبل ان اراه ! واذا ما رأيته ، واذا ما احببته فما تكون النتيجة اذا لم يستعمل حقه في طلبي ؟

اكون قد شوهت حياتي . اكون قد هدمت مستقبلي ،فحال ان أقبل برجل غيره وقد فكرت به هو رجـــلي الحقيقي . اذا قبلت الزواج من سواه أرتكب جناية بحق نفسي وبحق من سأتزوج . وهل هنالك افظع من خيانة الانسان لنفسه ؟

كيف ابيح لنفسي الحب وانا غير واثقة من نتائجه، اترين؟ اننا لا نملك حتى حق الحب ، حتى حق العاطفة الحرة .

اتدرين اني ،احيانا، افضل لو كنت ولدت في جيل جدتي ، او حتى في اجيال تسبق جيلها ؟ لو حدث هذا لما كنت على ما انا عليه . كنت قد قبلت بمصيري راضية ، وانا جاهلة بما يدور حولي .

اما ان يفتحوا عيني وان يعلموني اني انسان ، ثم يتركوني على ما كانت هي ، جدتي ، عليه من القيود والاغلال ، فهذا ما لا اطيقه ولا احتمله .

ربما تقولين الثورة ؟ وما نفع الثورة ؟ لقد ثرت في اشياء كثيرة .

لم تكن والدة جدتي تعرف القراءة،فاتت جدتي وتعلمت«فك الحروف» ووصلت والدتي الى نهاية التعليم الابتدائي ، واتاحت لي فرصة التعلم الجامعي ووقفت مشفقة علي وهي ترى نمو شخصيتي في عالمنا الضيق .

لقد ثرت في اشياء كثيرة . انهيت علومي . لقد قلت« لا »لمن كان اهلي يريدون ان اقول له«نعم»...واين انا الان ؟ في ركاب العوانس،ويقولون؛ في بلادنا ، ان العوانس مهسترات ! ويبشرون بمصير لهن بائس !

ونحن ، انت وانا وكل فتاة اخرى ، نذكر كيف ضحكنا من استاذة التاريخ ومن على شاكلتها...نعم ، اننا ، في قرارة انفسنا، نعلم المصير البائس.

فكيف ابقى مترددة ؟ ومن اجل من أقوم بهذه التضحية في شبابي ؟ من اجله ؟ ولكن من هو هذا الذي انتظر ؟

وهل يستحق ان احرم نفسي من الامومة ؟ هل يستحق مني حرمان نفسي من ضم طفل الى صدري ؟ هؤلاء الاطفال الذين أحبهم والذين اقضي حيـــاتي الآن بالحنين الى احدهم ؟ انا ، انا التي اشعر اني ولدت من اجل العناية بالاطفال. هل اقضي عمري وانا أعنى بأطفال الآخرين ؟ اذا مازارنا احد اولاد عمي وقضى الليل عندنا اجاس اليه الســـاعات الطوال الاعبه واطعمه . وحتى في الليل استيقظ مراراً ، لارفع الغطاء الى رقبته بعد ان رفسه بقدمه وهو يتقلب . اخـــاف عليه البرد ، واود رؤيته سعيداً بنومه الناعم. فكيف لو كان لي طفل ، اي سعادة سأشعر بها وهو الى قربي ؟

لا ... لقد اضعت سنوات كثيرة وانا في حرمان الانتظار !لقد هدرت قسما كبيراً من ربيع عمري في الثورة .

ان انتظر اكثر . لقد ساهمت بنصيبي ، لقد تركت له – لرجـــلي – فرصة ليبحث عني ، ليستعمل حقه في البحث وفي الاختيار وفي الطلب .

لقد سئمت حقي في قول لا . ساقبل بمنير .

الاستسلام ؟ نعم ، أنا استسلم الان وماذا بقي لي غير الرضوخ ؟

ولكن ... ثقي يا عاطفة اني باستسلامي اليوم افسح مجالاً لثورة اشد عنفا من ثورتنا نحن . ستأتي ثورة ابنتي . هذه الثورة التي بدأتها جدتي ثم امي وانا ... ستحملها ابنتي . ولن اقف في طريقها . ولن تترك هي لابي مخلوق مجال التوقف في طريق ثورتها هذه .

لا بأس من استسلامي الان.لست إلا جسراً تعبر عليه ابنتي نحو انسانيتها .

الست من رأيي يا عاطفة ؟

قريباً تقرئين نبأ خطبتي فأسألك الاتتمجي ولا تدهشي ولا ترثي لحالي.

ان الغد لبناتنا ، سنحيا من جديد بانتصارهن ، سنولد من جديد يوم نراهن يتمتعن بانسانيتهن .

باخلاص

هيفاء

أنجيل عبود

صدر كتاب

تنظيم النسل

اول دراسة في اللغة العربية لهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة

للدكتور وليد قمحاوي

دار العلم للملايين